وفــود اليمــن

اســتقبل امرؤ القيس أخته عند وادى عارض فى ركب حافل من شــيوخ اليمن، ولم تجد هنــد عند ذلك فرصة للإفضــاء إلى أخيها بمــا كان من أمرهــا؛ ثم أنزلت فى خيمة أخيهــا حتى ضربت لها خيمــة أخرى فســيحة فــى جوارهــا، فانتقلت إليها، وأحســت بالحاجة الشديدة إلى الراحة منذ شعرت بالاطمئنان؛ فتركها امرؤ القيس لتصيب قســطها من النوم بعد سفرها الطويل، وما قاسته فى الأيام الماضية من المشقة والقلق.

وفــى صبــاح اليــوم التالى ذهــب إليهــا، بعد أن عــرف أنها قد استعدت للقائه، فوجدها تنتظره عند باب خبائها، مادة يديها نحوه فى شوق واضطراب.

فعانقها امرؤ القيس، وغلبته أشــجانه، فجعل يبكى وهو يقبل وجنتيها وجبينها، ثم جلس معها يسمع قصتها الطويلة، ودموعه لا تزال تنهمر على خديه، صامت اللسان مضطرب الفؤاد.

وكانت فتاة طويلة القامة، ممتلئة الجسم، بيضاء البشرة، واسعة العينين، يخيل إلى الناظر إليهما أنهما كحلاوان من شــدة ســواد أهدابهما الطويلة؛ وكان وجهها تعلوه صفرة طفيفة تزيده حســنًا؛ وكان صوتها وهــى تتحدث صوتًا عذبًا هادئًا، ينم عن نفس مهذبة

اعتادت النعيم والسيادة. ولما انتهت من وصف حوادث بنى أسد إلى قتل أبيها، رفع امرؤ القيس رأسه، ونظر إليها والدموع تنهمر من عينيه، وقال لها بصوت متهدج: «أختاه» !

فنظرت إليه هند وعيناها مغرورقتان، ووجهها مبلل، ووضعت يدها برفق على رأسه فمرت بها إلى ظهره، وقالت بصوت هادئ: «حسبك يا أخى. فقد صرت إليك، وأمنت فى جوارك».

فقال امرؤ القيس، وهو ينظر فى الفضاء نظرة قاسية: «الويل لهم! لأمثلن بهم ولأجعلنهم حديثًا للعرب. لأقتلن مائة من شيوخهم فى دم حجر. ولأقتلن أولهم شيخهم عمرو بن مسعود. أما علباء بن الحارث فلأطعمنه من لحمه. وأما عبيد. وأما ذلك العبد الدنىء...».

وسكت عند ذلك إذ لم يجد فى شدة حقده وثورة غله عقوبة يهتدى إليها تشفى قلبه من عدوه الكريه، شاعر بنى أسد. ثم نظر إلى هند، وقد جفت دموعه فرآها مطرقة فقال لها: «سيرضيك انتقامى منهم أيتها الشقيقة».

فرفعت رأسها وقالت فى تردد: «ولكنى نسيت أن أقول لك...».

فقاطعها امرؤ القيس: «سأنتقم منهم انتقامًا ينسيك كل ما حل بك من أذاهم، فاصرفى عنك التفكير فيما كان منهم».

فقالت هند باهتمام: «لم أرد ذكر شىء مما ظننت. لقد سمعتك تتحدث عن عمرو بن مسعود. فذكرت أمرًا ما كان ينبغى لى أن أنساه».

فقـال امرؤ القيـس مندفعًا: «عمـرو بن مسـعود؟ ليكونن أول مـن أصيب في ثأرى إلا إذا اسـتثنيت علباء ابـن الحارث الكاهلي والعبد عبيد».

فأسـرعت هند فقالـت: «إذًا تظلمه يا أخي. لقد وقف دون بابي والجمع الصاخـب يحيط به يطلب دمي. يطلب دمي كما كان يطلب دمـاء بني حجـر وبني إخوته وبني عمامتـه. فوقف عمرو دونهم يقول: «إنها في جواري ولن تصلوا إليها إلا على جثتي».

ففتح امرؤ القيس عينيه في دهشـة، ثم قال في صيحة: «أيفعل ذلك عمرو؟».

فقالت هند: «لقد فعل وبر بقوله. وضمني إلى عياله، ولم يسمح لأحد أن يصيبني بسـوء حتى أوصلني إلى أرض طيئ. حتى متاعي وأموالي وخدمي. لم يصبني سوء في شيء من كل ذلك وأنا في جواره».

فلانت نظرة امرئ القيـس وقال في صوت خافت: «عجيب أمر هذا الشيخ!»

فاسـتمرت هند تقـول: «لقد سـمعته يتكلم فما سـمعت صوتًا أقـوى، ولا نغمة أعذب. وهو يقـول للناس: «قتلنا حجرًا، وقاتلنا جند حجر. ولكنا لا نهتك الحُرم ولا نسلب المال».

فصمت امـرؤ القيس لحظة ثـم قال: «أهو قـد حملك إلى بلاد طيئ؟.».

فبادرت هند قائله: «وأوصى بى عامر بن جوين».

فقال امرؤ القيس فى دهشـة: «عامر بـن جوين؟ ما عرفت هذا إلا فاتكًا خليعًا».

فأسـرعت هند قائلة: «مـا رأيت مثله وفـاء. أقمت فى جواره ما أقمت، فكنت فى حرمـة موفورة؛ وثار قومه بأتباعى وخدمى، فكان هو دونهـم حاميًا؛ وحرضه أهله على أكل أموالى قائلين له: «كل أموالهم فإنهم مأكولون»، فلم يسـعه إلا أن ينجو بى وبأموالى وبمن معى فى ظلام ليلة مدهمة، قد لفها السحاب الداكن، فلا يرى فيها السـائر كفه. فكنت لا أرى منه إلا ساقين حَمْشتين، إذا أضاء البرق، وهو مشـمر عنهما يقود ناقتى مجدًّا فى السـير، حتى طلع بى إلـى أرض اليمن، وأبلغنى نجران، وأسـلمنى إلى قومى الذين جئت فى صحبتهم».

فهز امرؤ القيس رأسـه، ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «لقد طالما صحبنى فيمن صحبنى مـن الذؤبان، ألا رُبَّ صعلوك ضم ثوبه على قلب كريم».

ثم قام يسـير فى الخيمة مطرقًا، وغاب فى ذكريات أيامه التى قضاها مع فتية من أمثال ابن جوين، واهتزت نفسـه فجعل يتغنى ببعـض تلـك الذكريات وهو ثائر الشـجون، ولم يفـق من أحلامه إلا على صوت عامر عند باب الخيمة.

فنظر نحو الباب فرآه مقبلا، فاتجه إليه، وعند ذلك قامت هند مسرعة ودخلت إلى الخباء فى أقصى الخيمة.

وبـادر عامر قائلا: «القوم ينتظرونك، قومك من أهل اليمن، من قبائل حمير، قد جاءوا على دعوتى لنصرتك».

فسأله امرؤ القيس فى لهفة: «وماذا رأيت منهم؟».

قال عامر: «لم أر إلا خيرًا. ولكنى أحب أن أحدثك بعض الحديث عنهم، حتى تكون على بينة من أمرك إذا لقيتهم. فإنك...».

ووقف مترددًا كأنه يريد أن يختار لفظًا يؤدى ما يقصده.

فقال لـه امرؤ القيس: «نعم، أفهم ما تقصـد. إننى لم أعتد فى حياتـى أن أقابل أمثال هـؤلاء، ولا أن أعانى مثل ما أنا فيه اليوم. حقًا قد كنت أضرب فى الآفـاق، لا أعبأ بغير الشـراب والمجون مـع فتية لفظتهم القبائـل وتبرأت منهم. هذا مـا تريد أن تقول، وهو حق...».

فقاطعـه عامـر قائلا فى لهجة تشـبه الاعتذار: «لـم أرد ذلك يا بن أخـى، ولكنى أردت أن أقول إنك لـم تعرف هؤلاء القوم بعد ولـم تخالطهم، وإذا أنت ذهبـت إليهم على غير علم بهم، لم تأمن أن تخطئ قصدهم، أو أن يخطئوا قصدك».

فقال امرؤ القيس رافعًا حاجبيه، وهو يبتسـم ابتسامة ضئيلة: «لا عليك يا عماه، فلو أردت ما قلته أنا لما كان عليك بأس، ولم تكن مخطئًا. ولسـت أجد إلا الشـكر جزاء لك على حدبك وحرصك علىّ فى أمرى، فقل لى ما كنت تريد أن تقول».

فانبسطت أسارير وجه عامر، ثم رفع يده إلى قرب وجهه ناشرًا أصابعه وقال: «أترى هذا اليد؟».

فتبسم امرؤ القيس وقال: «أحسبنى أراها».

فقال عامر جادًّا: «لن تستطيع هذه اليد أن تؤدى عملا إلا إذا اجتمعت لها هذه الأصابع المفرقة».

فهز امرؤ القيس رأسه وقد أعداه جد صاحبه، وقال: «لا شك فى هذا».

فقال عامر وقد أشار بإحدى أصابعه مفردة: «ولكن هذه الأصبع وحدها لا قوة لها ولا تستطيع شيئًا».

فهز امرؤ القيس رأسه وهو صامت، وانتظر أن يتم صاحبه قوله، فاستمر عامر فقال: «قد تقدر أن تستغنى عن أصبع واحدة، ولكن يدك تفقد بفقدها بعض قوتها. ولا تأمن إن أنت فقدت واحدة من أصابعك أن تفقد الأخرى إذا أنت استخففت بأمرها».

فهز امرؤ القيس رأسه مرة أخرى، وعاد إلى الابتسام، واستمر عامر فى حديثه، فقال: «فنحن الآن فى موقفنا فى أشد الحاجة إلى كل قومنا، وإلى كل من نقدر على تجميعه حولنا من العرب. فتذكر مقالى كلما وجدت نفسك دون رجل من هؤلاء. احرص على مودة كل فرد منهم حتى تجتمع لك قوتهم كلها. لقد عاشرت العرب وعاملتهم حتى بلغت ما بلغت من سنى. وقد عرفتهم وعرفت نفسى بهم؛ فنحن معاشر العرب كسباع البر، نمشى فرادى،

ونعيش فــرادى، ونجتمع ونحن فــرادى. فإذا أردت أن يجتمع لك جمع، فاحرص على أن يجتمع لك منه كل فرد».

فقال امرؤ القيس، وقد عاد إلى الجد: «قول حكيم لن أنساه».

فاســتمر عامر قائلا: «لا تظنن الأمر ســهلا. إنى أعرفك معرفة لا تصل إليها أنت من نفسك».

فنظر إليه الشــاب فى شيء من الدهشــة، ولكنه لم يتكلم فعاد عامر إلى الحديث، فقال فى شــيء من الصرامة: «أعرف فيك كبرًا عظيما، وأعرف فيك غضبًا ســريعًا، وأعرف فيك ما هو أشــد عليك من كل ذلك...».

ثم وقف ينظر إليه ليرى أثر قوله، فقال امرؤ القيس فى هدوء: «إنما تقول حقًّا، فلا تخش أن تكشف كل ما عندك».

فعــاد عامــر إلى الحديــث وقال: «فيــك ما هو أشــد خطرًا من كل شيء، وهو أنك لا تستطيع المداراة. أنت ترى الرأى فى نفسك، فإذا هو على لسانك».

فأطرق امرؤ القيس لحظة، ثم قال فى هدوء: «صدقت».

فقال عامر مرتاحًا: «هذا ما أردت أن أكشــف لك عنه من رأيي، وأحب أن تعدنى بأمر واحد».

فقال امرؤ القيس مسرعًا: «تجدنى طائعًا».

فوضع عامر يده على كتفه، وقال فى عطف ومودة: «لا تسرع إلى جواب أحد من القوم حتى تنظر فى وجهى. فأنا أعرف بهم منك».

فصمت امرؤ القيس وجعل ينظر في أصابع يده، وقد قبضها ورفعها إلى قرب صدره. وأراد عامر أن يوضح له قصده، فقال: «إذا رأيت أنى مطرق فأمسك عن الحديث».

فرفع امرؤ القيس رأسه، وقال في صوت هادئ: «أفعل ما تحب».

فبدا السرور على وجه عامر ومد إليه يده، فصافحه وهو يقول: «هلم إذًا يا ولدى لنلقى القوم».

وخرجا سائرين نحو الخيمة الكبرى حيث اجتمع شيوخ من كندة وحمير من قبائل اليمن، أقبلوا جميعًا على دعوة من عامر بعد أن بعث إليهم بعض الهدايا مما كان في خزائن حجر.

وكان امرؤ القيس في سيره مطرقًا يفكر فيما قاله عامر بن الجون، فإن كلماته أثرن في قلبه دفينة، وحركن فيه ذكريات كاد ينساها في هموم الحوادث السريعة التى مرت به في الأيام الأخيرة. وكانت هذه الكلمات أقوى في نفسه وقعًا وأبلغ أثرًا، إذ كان من قبل يحسها في غير وضوح؛ فلما صورها له عامر تبينها جلية ولم يجد فيها لونًا ينكره. ولهذا لم يغضب ولم يكره ذلك الصديق الصريح، بل جعل يفكر في أمره كأنه يفكر في أمر شخص غيره؛ فتمثل نفسه حقًّا ذلك الفتى الشاعر الذى لا يستطيع كتمان عاطفته ولا كبح جماحها، والفتى المتكبر الذى يرى نفسه فوق سائر الناس في ذكائه ودقة إحساسه وقوة إدراكه، والفتى الثائر الذى لا يصبر على أذى ولا يتغاضى عن سيئة؛ فهو لا يقبل الحياة كما تقبل عليه،

بل يريدهـا أن تهيـأ له كما يريدهـا، وهو لا يعاشـر الناس على علاتهم، يأخذ منهم ما يعطونه ويعطيهم من نفسـه ما يعوضهم من ذلك، بل هو يعيش مع نفسـه ولا يريد من الناس إلا أن يشـاركوه فيمـا يصيب من الحيـاة التى يريدها، تمثل هـذه النفس العجيبة التى كانت تجد سلوتها فى العيشة المضطربة التى عاشها حينًا من الدهر، ضاربًا فى الآفاق، مع جماعة ساروا وراءه واتبعوه وأطاعوه، يبتغون معه اللذة الوحشـية التى كان يتمتع بها؛ تمثل هذه النفس التى كانت لا تطمئن ولا تسـتقر، بل لا تزال تلتمس أن تهرب من شجونها وهمومها، إلى حياة العنف واللهو والتشرد.

وفيمـا كان غارقًا فى هذه الأفكار المضطربـة، ثارت به صورة فاطمـة ابنة عامر فاطمة ابنة ذلك الرجل الذى يسـير إلى جانبه، والـذى ألقت إليه المقاديـر قياد أمره، وجعلتـه ناصحه وصديقه ومدبّر شئونه.

وما مرت ذكـرى فاطمة فى خياله حتى اضطـرب قلبه، وضاق صدره، وأحس كأنه يكاد يختنق. فلو كان الدهر لم يحرمه حبها، ولـو كان لم ينزعها منه هذه النزعة القاسـية التى لم تترك له أملا فيها، ولو كانت نفسه لم تدفعه إلى تلك الحياة الصاخبة التى اندفع فى تيارها، بل أسـرع عائدًا إليها وسار فى آثارها، وما زال يتدلل لهـا ولأبيها حتى يفوز بها - لو كان شـىء مـن ذلك أو ذلك كله، لرضى من حياته بما أعطته، ولاستقر فيها قانعًا، ولأحس السعادة

التى لم يذقها يومًا فى حياته؛ ولكنه لم يخلق إلا شاعرًا، والشاعر لو رأى السعادة ماثلة أمامه تناديه أن يفتح ذراعيه لها، لهرب منها لكى يحيا فى شقائه يتغنى بألمه من جراء حرمانه منها.

ثم تمثل امرؤ القيس تلك المواقف الجديدة التى كان عليه أن يقفها. وهؤلاء الحلفاء الذين وفدوا عليه كان لابد له من أن يداريهم ويستميلهم، وهذه الحروب التى كان عليه أن يخوض غمارها؛ فاستولى عليه شعور قوى من الرهبة والكراهة لما هو مقبل عليه، لأنه لم يكن رجل الحياة الجاهمة العابسة التى تقوم على المعاملة والمقايضة والمساومة؛ فهو لو سئل بَذْل ما فى الحياة كلها من ثروة وجاه وسيادة فى سبيل نزوة من نزوات قلبه لجاد بكل ذلك راضيًا. إنه لم يكن أهلا لذلك الميدان الجديد الذى دفعته إليه الأقدار دفعًا، ولكنه كان لابد له من النزول إليه.

ظل امرؤ القيس غارقًا فى هذه الأفكار المتلاطمة المتدافعة حتى بلغ منزل وفود اليمن الذين كانوا فى انتظاره فِي الخيمة الكبرى التى ضربت لهم، فنظر إليه عامر فوجده يسير مطرقا كأنه غارق فى حلم، فعاوده ذلك الإحساس الذى كان يحسه كلما رآه يسبح فى أحلامه. إحساس يشبه الاحتقار، لولا ما يشوبه من عطف ورقة، فتنفس نفسًا عميقًا، ثم رفع يده فلمس كتفه قائلا: «قد بلغنا منزل القوم».

فتنبه امرؤ القيس فى شيء من الذعر، وقال وهو يتنفس: «هنا».

ولم ينتظر جوابًا بل سار نحو الخيمة وعامر يسير من ورائه ساهمًا.